**انـتفض** جسـده المسـجّى علـى الرمـل حـين مـرّت فـوق بطنـه حركـةٌ مباغتـة، رشـيقةٌ، كأنهـا ومضـةُ ظـلٍّ حـيٍّ انسلّت مـن عـالمٍ آخـر. انقبض صـدره، وارتفـع جسـده دفعـةً واحـدة، يـنفض عنـه بقايـا النـوم والرمـل والارتبـاك، فيمـا قـبض بيـده سـترته القديمـة — تلـك التـي جعـل منهـا غطـاءه الوحيـد فـي تلـك الليلـة الغريبـة — ليزيحها عن وجهه، فيرى.

تجمّـد فـي مكانـه، وعينـاه تتبعـان ذلـك الجـرذ الضـخم وهـو يـولي الأدبـار. جـرى الحيـوان بخفـةٍ خبيثـة، واختفـى بعكـس اتجـاه المـوج، متسـلّلاً إلـى بـين كومـةٍ مـن الصـخور والأحجـار المتراصـة، حيـث الجـرف الطينـيّ الكبيـر الممتـدّ علـى طول الشاطئ.

كـان البحـر مـن خلفـه يتـنفسُ أنفاسَـه الثقيلـة، مالحًـا، متقطّعًـا كصـدرٍ عجـوزٍ يلهـث بعـد عنـاءٍ طويـل، فيمـا الليـل يربّـت علـى كتفيـه بلطـفٍ لا يخلـو مـن الوحشـة. رفـع بصـره نحـو الأفـق البعيـد، نصـفه ظلمـةٌ ونصـفه نثـارُ ضـوءٍ مـن قمرٍ خافتٍ يتوارى خلف الغيوم.

ابتسـم ابتسـامةً باهتـةً، أقـرب إلـى السـخرية منهـا إلـى الطمأنينـة، قبـل أن يهمـس في نفسه:

ـ أول ليلةٍ لي خارج البيت... من كان يظنّ؟

كانـت فعـلًا ليلتـه الأولـى، الأولـى التـي يبيـت فيهـا خـارج جـدران بيـتهم العتيـق فـي المخـيّم. لـم يعتـد الأمـر مـن قبـل، ولـم يخطـر لـه يومًـا أن يهـرب أو يبيـت بعيـدًا عـن أسـرته مهمـا اشـتدّت الخلافـات. لكنـه هـذه المـرة شـعر أن صـدره لـم

يعد يتسع لحرفٍ واحدٍ من تلك الكلمات التي يطلقها أبوه كل يومٍ عليه كرصاصٍ مطرّزٍ باللوم.

تذكّر كم مرةٍ تكررت المشاجرات. كم مرةٍ رفع والده صوته حتى اهتزّت الجدران الطينية التي ورثوها عن جدّهم. وكم مرةٍ حاول أن يردّ، ثم صمت في منتصف الطريق، لأنّ أمه نظرت إليه بعينين متوسلتين تحملان في بياضهما بقايا دموعٍ مؤجلة.

كان رأس كل تلك المعارك — كما يعرف تمامًا — هو الجوع. ذلك الجوع الذي صار واحدًا من أفراد الأسرة، يجلس معهم على المائدة الخالية، يمدّ يده قبلهم، ثم يضحك ساخرًا في النهاية.

كانت غزة، في تلك السنوات، تتآكل من أطرافها كما تتآكل السفينة من أمواجها المالحة. العمل نادرٌ كالماء في الصحراء، والأسعار تقفز كجنونٍ صيفيّ، والناس يزدادون ضيقًا وفقرًا حتى باتت حياتهم تشبه الحصار نفسه؛ مغلقةٌ من كل الجهات.

قالها لنفسه مرارًا :العيشة في غزة صارت امتحانًا يوميًّا للصبر. كانت وكالة الغوث تُصدر بين الحين والآخر تقاريرها عن «الفقر المدقع»، عن «الاحتياج الإنساني»، وعن «العائلات التي تحت خطّ العجز»، لكنه كان يرى تلك العبارات في عيون الناس أكثر مما يراها في الأوراق. رأى الفقر في وجه أبيه المتجعّد، في نظرة أمّه حين تخفي رغيفًا من أجله، في صمت أخيه الصغير وهو يلعق بقايا الشاي البارد بعد العشاء.

تنهّد بعمقٍ وهو يسترجع كلمات أبيه الأخيرة. كان فايز العقراوي — الذي يناديه الجميع "أبو عماد" — رجلاً في الستين من عمره، قضى شبابه عاملاً في البناء داخل الأرض المحتلة عام ٤٨. رجلٌ يعرف طعم التعب،

وملح العرق، لكنّه الآن بلا عمل، بلا موردٍ، بلا حولٍ سوى صوته الغليظ وغضبه الدائم.

ذلك الغضب كان سلاحه الأخير في وجه الحياة. يوزّعه على أولاده التسعة بالتساوي، وربما أكثرهم نصيبًا منه كان عيسى، الثالث في الترتيب، الذي أنهى دراسته في إدارة الأعمال، ثم انضمّ رسميًا إلى جيوش العاطلين عن العمل.

كان الأب يردّد كل يومٍ تقريبًا عبارته التي صارت أشبه بنشيدٍ منزليّ: – "روح دور على شغل! اخلق شغل! أنا ما بعرف... بس ما بدي أشوفك راجع عالدار قبل ما تلاقي شغل"!

تلك الكلمات، رغم ما فيها من حنقٍ وألمٍ دفين، كانت تضرب في أعماقه كالسياط.

كان يعلم أن أباه لا يكرهه، لكنه فقد القدرة على قول الأشياء بلغةٍ أخرى غير الأوامر. كان الرجل يرى في أولاده مشروعًا لإنقاذ نفسه من العجز، لا أبناءً فقط. يرى فيهم اليد التي ستكمل ما عجزت عنه يداه اللتان تآكلتا من الأسمنت والغبار.

أما عيسى، فكان يرى شيئًا آخر. يرى في نفسه شابًا حُرم من أبسط مقوّمات الحلم. لم يكن يطلب ثراءً، فقط نافذةً تُطلّ على غدٍ ممكن. كان يدرك أن أباه محقّ من ناحية، لكنّه في الوقت نفسه، لا يستطيع أن يتجاهل واقعًا يُغلق الأبواب في وجهه كلّما طرقها. كم مرةً ذهب من ورشةٍ إلى أخرى، من محلٍّ إلى آخر، ومن مكتبٍ صغيرٍ إلى ميدانٍ مزدحمٍ، وكل الإجابات تتشابه:

«الوضع صعب»، «الاقتصاد واقف»، «ما في تشغيل جديد».

كان يسمعها فيتحوّل قلبه إلى حجرٍ باردٍ. يعود إلى البيت متعبًا، لا يحمل سوى الغبار في شعره والخيبة في جيبه.

وفي كل مرةٍ يقرّر أن يصمت أمام والده، تشتعل المعركة من جديد. الأب يثور، والأم تتوسّط، والإخوة يصمتون، وسعاد — أخته الكبرى — تكتفي بأن تنظر إليه بعينٍ حزينةٍ، كما لو كانت تقول له: اصبر قليلاً، فحتى الصبر في هذا البيت صار رفاهية.

تلك السلسلة من التوترات اليومية صارت طقوسًا منزلية. ومع مرور الأيام، صار البيت نفسه يختنق بتلك الأصوات، حتى باتت الجدران تحفظ الشتائم أكثر مما تحفظ الدعوات.

كان الأب يتباهى بأنّه «أدى واجبه»، فيكرّر أمام الجيران: — "زوّجت عماد، وكبّرت البنت، ولسه بدهم يقولوا أنا مقصّر؟"! لكنّه حين يدخل البيت، ينسى تلك الكلمات، ويعود إلى صراخه المعتاد، وإلى مطالبة كلّ واحدٍ من أولاده بأن "يقاتل" من أجل لقمة العيش. حتى الصغير «معاذ» لم يسلم من تلك الخطب اليومية، رغم أنّه بالكاد أتمّ الخامسة عشرة. كان الأب يقول: "الزمن ما برحم، اللي ما بيشتغل اليوم، بيتسوّل بكرا."

وبينما يتردّد صدى تلك العبارات في رأس عيسى، كان الشاطئ من حوله يهدأ شيئًا فشيئًا.

جلس على الرمل، يضمّ ركبتيه إلى صدره، يحدّق في خطّ الأفق الذي بدأ يستعيد لونه الأزرق الرمادي.

الريح الخفيفة تهمس في أذنه، كأنّها تعاتبه أو تواسيه، وهو يهمس في سرّه:
- "لو يعلم أبي كم حاولت"...

ثم يضحك مرًّا، ويكمل: "بس هو ما بدّه يسمع".

كانت ذاكرته تستعيد تفاصيل البيت؛ صوت الملاعق، صياح إخوةٍ صغار، خطوات أمّه الحنون وهي تحاول أن تخلق دفئًا من اللاشيء. تذكّر سعاد وهي تقف قرب النافذة في كل مساء، تحدّق في الطريق كمن ينتظر وعدًا قديمًا لم يتحقّق.

تذكّر عماد، الأخ الأكبر، وقد تحرّر من سطوة الأب حين تزوّج، فصار يزوره قليلًا ويعاتبه أقلّ.

وتذكّر نفسه، دائمًا في المنتصف: لا هو الأكبر الذي يحقّ له الاستقلال، ولا الأصغر الذي يُعفى من المسؤولية. فقط عالقٌ في المنتصف، حيث لا أحد يسمعك ولا أحد ينتظرك.

هنا، على الشاطئ، تحت هذا الليل الذي يوشك على الانقضاء، شعر بشيءٍ من الحرية. حريةٍ مشوبةٍ بالخوف، كمن خرج من قفصٍ ليجد نفسه في غابةٍ لا يعرفها.

لم يكن يدري أن تلك الليلة التي ظنّها هروبًا مؤقتًا ستكون أول بابٍ يفتحه نحو المجهول — نحو «إليون» الذي لم يكن يعرفه بعد، ونحو مصيره الذي سيعيد كتابة كل شيء.

***